36

مكـتب

كم أتمنى أن يكون في كل بيت، في غرفة من غرفه، أو زاوية من زواياه، فمجرد وجوده أمامك تشجيع لك على طلب العلم والقراءة والجد والاستذكار، وتذكرة لك بالمكتبة، لأن هناك ارتباطًا وثيقًا وصلة قوية بينهما حتى في شكل الاسم وتركيبه! فمن المكتبة تنتقي الكتاب المفضل، وعلى المكتب يمكنك أن تجلس لتقرأه أو تلخصه أو تكتب ما تريد منه أو من غيره.

وكم تمنيت أن يهتم كل عروسين عند تأثيث عشهما السعيد بإيجاد المكتب وقرينته المخلصة –المكتبة– بما تضم من كتيبات لا غنى لهما عنها في مقتبل حياتهما الزوجية والعملية.

وقد يوجد المكتب بالفعل في بيوت كثيرة لكننا نريد أن نحسن استخدامه لأن البعض قد لا يهتم بذلك، فحبذا لو عُوّد الأولاد على الجلوس عليه منذ الصغر لعمل الواجبات المدرسية والمذاكرة والقراءة مع التنبيه على ضرورة الجلوس بطريقة سليمة وصحية، ومراعاة الإضاءة الجيدة كذلك.

فوق سطح هذا المكتب يستفرغ المرء ما يحمل عقله من رحيق الأفكار، ويقطف ما في ذهنه من ثمار المعرفة وتجارب الحياة، وعلى أرضه يبذر بذور العلم ويحصد ثمرته، ولا سبيل لذلك إلا باستخدام الرفيق الملازم للمكتب، والصديق المخلص له –القلم– الذي كرمه الله تعالى من فوق سبع سماوات، حين جعله أداة لطلب العلم وتدوينه وكتابته، وأيّ فخر ناله هذا القلم إذ سُميت سورة قرآنية

كاملة باسمه، وأقسم الله عز وجل به كأداة للكتابة فقال في كتابه العزيز: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم:1] .. وذكره كذلك عند الأمر بطلب العلم فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:3:5]. لذا فإننا نجده يمتطي بدَلال ظهر صديقه المكتب مرفوع الهامة، يشير إليك كأنه إصبع يعطي الأوامر للجالسين أمامه، ينتظر من يحتضنه بدفء وحنان ويحركه بين أنامله بحبّ وامتنان، ليسطّر به ما فتح الله عليه من كلمات طيبات هي خير من الدنيا وما فيها، قد تكون رسالة ودّ وبرّ لذي رحم، أوكلمات غزل وشوق لزوجة أو ولد، أو رسالة نصح وحب لصديق، ويكتب به على صفحات الورق ما سُطّر على صفحات العقل، وينقش على سطورها ما نُقش على جدران النفس من خواطر وفكر، ومُستقَر القلم في ذلك كله أرض المكتب لكنه لا يستقر ما دام هناك من يطلب العلم به.

والكتابة متعة حقيقية لا تقل عن القراءة متعة وأهمية، فعندما تقرأ فأنت موصول بالكتاب مرتبط بما فيه، أما عندما تكتب فأنت تنطلق وتطلق لخيالك العنان –على أن لا تحيد عن الصراط المستقيم- فالكتابة إذن نتاج عصارة الفكر وخلاصة مكنون الصدر وصادق حديث النفس، وهي وسيلة التخاطب عن بُعد مع من عرفت ومن لا تعرف، ومن خلالها تصل المعلومة النافعة والتذكرة الطيبة والنصيحة الخالدة، فترتبط الأرواح دون لقاء الأجساد، كما أنها تكسر حاجز الرهبة في النفس التي قد يلجمها الخجل فلا تملك الشجاعة الأدبية على الكلام مشافهة فتبوح به على الورقة بلا سابق إنذار أو استئذان!

والكتابة صديق وفيّ لا يملّ منك، فيصطحبك أينما كنت، وهي أنيس في حياة الوحدة، وشريك في زمن الغربة، وصاحب في دروب السفر الطويل، وبها تخرج المشاعر الدافقة على هيئة حروف وكلمات متناسقة، وكما ينصح بالقراءة فإن الكتابة لا تقل شأنًا عنها إلا أن القراءة هي البداية، والكتابة لها آداب سامية يجب

معرفتها والتأدب بها وهي تحتاج إلى عزم وهمة وقبل ذلك إخلاص لله تعالى وطلب العون منه، وما من عالم من علمائنا الأجلاء في القديم والحديث إلا وله مع الكتابة رحلة ومع الكتب والمكتب صحبة، وقد كان علماؤنا الأوائل يكتبون ويؤلفون في شتى العلوم ومختلف الدراسات، ولم تكن مكاتبهم فخمة كمكاتبنا لكنها أيضًا لم تكن خاوية بل كانت عامرة بما يدوّن عليها من علوم خالدة إلى يومنا هذا ولا أدَلّ على ذلك من الثروة التي تركوها لنا ولا زالوا بها أحياء وإن كانوا في نظر البعض مع الأموات، فها هو شيخ الإسلام **ابن تيمية**-رحمه الله- الذي بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره لما سُجن جعل من أرض السجن مكتبًا له، ومن الحبس انطلاقًا لفكره، ومن الوحدة خلوة للتأمل والفكر والكتابة، فلم ينقطع عنها رغم ذلك، بل إنه حين حرم من أوراقه ومحبرته لم يلن عزمه فكان يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك ربما لو رآها أحدنا لألقى بها بعيداً، فكانت حصيلة تلك الهمة العالية أكثر من ثلاثمائة مجلد هي امتداد لحياته وعمر آخَر له.

أما في عصرنا الحالي، فقد ضرب لنا شيخنا العلامة الدكتور **"يوسف القرضاوي"** مثلاً عاليًا في الهمة وحب العلم والكتابة، وقد وصلت مؤلفاته مائة كتاب (**منها عشرون كتابًا لوزارة التربية بقطر**) أضف إلى ذلك مقالاته الدعوية وفتاواه الشرعية، ولا زال عطاؤه مستمرًا حفظه الله، كل ذلك رغم انشغاله بأمر الدعوة. وغيره من إخوانه من العلماء في عصرنا الكثير.

والمكتب اسم يدل على مكان الكتابة، والمكاتب بذلك تكون كثيرة ومن جلس إليها وجب عليه أن يعرف لهذا الجلوس حقه الذي عنه سيسأل، فإن كان مكتب استشارة فالمستشار أمين فليؤد أمانته من النصح والتوجيه وقول الحق، فعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: **"بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم"** [1] .

(1) متفق عليه .

وإن كان مكتبًا لمدير مدرسة فليعلم أنه راع لكل الطلاب وأنه مؤتمن عليهم، فليحفظ أمانته وقد قال رسول الله ﷺ: **"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"** [1] ..

وليتذكر أنه قدوة لطلابه فينظر ماذا يقدم لهم من خير فإن النبي ﷺ يقول: **"من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا"** [2] .

ولا ينسى عظم ما يقوم به من عمل، ففي الحديث: **"إن الله سبحانه وملائكته حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير"** [3] .

وإن كان عاملاً في وظيفة يحتاجه الناس فيها لقضاء حوائجهم فليؤد عمله بإتقان لأنه مسئول، ولا يتطلع لما في أيديهم وليستعفف عن أموالهم ليكون كسبه حلالاً، وقد قال رسول الله ﷺ: **"من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة"**.

فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟

فقال: **"وإن قضيبًا من أراك"** [4] .

وأن يكون رفيقًا مع الناس لأن هذا خلق يحبه الله عز وجل وقد قال نبينا ﷺ: **"إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله "** [5] .

وإن كان طبيبًا فليكن رحيمًا رفيقًا بمرضاه وليقدم لهم مع الدواء المحسوس دواء آخر في بسمة ثغر أو كلمة حب أو مشاركة في الألم وتطبيب قلوبهم المنكسرة بالحب والدعاء والتعلق بالله سبحانه الشافي، فإن الجزاء من جنس العمل وقد قال النبي ﷺ : **"الراحمون يرحمهم الرحمن"** [6] .

---

(1) رواه البخاري .
(2) رواه مسلم .
(3) رواه الترمذي .
(4) رواه مسلم .
(5) متفق عليه .
(6) رواه الترمذي .

obeikandl.com

أما إذا كان الجالس إليه طالب علم فعليه أن يخلص عمله ويعلم أن طلب العلم فريضة عليه فيصبر ويتحمل مشقة الطلب ليكون نافعًا لأمته ووطنه، وكما قيل: من لم يتحمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل إلى قيام الساعة، والعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وعليه تدوين ما يتعلمه لئلا ينساه فالعلم صيد والكتابة قيد ، والبشرى له بثواب الله تعالى إن أخلص في ذلك ونشأ عليه، فقد روي أن النبي ﷺ قال: **"أيما ناشئ نشأ في طلب العلم والعبادة حتى يكبر أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثواب اثنين وسبعين صدّيقًا "**[1] .

(1) رواه الطبراني .

obeikandl.com

37

مكتبة (أ)

هي واحة غناء وسط الصحراء، ينهل منها طلبة العلم والعلماء، وهي روضة تسر الناظرين، وبستان من أجمل البساتين، فيها يرتوي العطشان، ويرتاح الإنسان، وهي الدواء للعليل والظل الظليل، فلا يستغني عنها وزير أو أمير، بها زاد العقول والأرواح في غدوّ أو رواح، لا تملّ من صديق ولاتشعر فيها بالضيق.. تجدها بالبيت وبالمدرسة وفي الشارع وفي الطريق.. فهل عرفتها؟

نعم.. إنها المكتبة.. وحين نتكلم عنها نقصد تلك التي تضم من زهور الكتب أجملها، ومن بحور العلم أصفاها، ومن الزاد أنفعه، ومن الدواء أنجعه، إذ أننا جميعًا نحتاج إليها، ومن يستغن عنها فقد سلك مسلك الجهال الذين يشغلهم زاد الأبدان عن تحصيل زاد الأرواح والأذهان .

فوق أرفف هذه المكتبة وبالتحديد أعلى رف منها نجده، فهو أهم مرجع يُرجع إليه في أي أمر، وأعظم كتاب يدرس ويدرّس، ويُتعلم ويُعلَّم، وأعدل حكم نلجأ إليه ليحكم، به يُجلَى الصدأ ويُزال الران الذي يعلو القلوب، وفيه راحة النفس وانشراحها، وسكينة الروح واطمئنانها، فهو كتاب الله العظيم والذكر الحكيم، وهو النور والهدى المبين، وأي مكتبة لا يوجد فيها فهي مبتورة ناقصة، عديمة البركة والفائدة إذ خلت من كلام الله عز وجل الذي هو المدخل لكل العلوم والداعي إليها، لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: (**إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين**). هذا القرآن الكريم الخالد الذي يتعبد بتلاوته المؤمنون

ويُنفق في تعلمه وتعليمه الأعمار والسنون، قد حفظه الله تعالى من التحريف والتبديل فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحِجر:9]. وأثنى على أهله رسوله ﷺ فقال: **"أهل القرآن أهل الله وخاصته"** (1).

وقد ذكر بعض العلماء: أن تسمية هذا الكتاب قرآنًا بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[النحل:89].

والقرآن كما نعرف هو كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ ليكون هداية للبشر من الضلال، ونورًا لهم في الظلمات، يخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الشرك بالرحمن إلى التوحيد والإيمان، ومن الحكم بالأهواء إلى شريعة السماء، فهو منهج حياة ودستور حكم وقضاء، وهو كما قال عنه رسول الله ﷺ: **"إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوّم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد"** (2).

لم ينزله الله على رسوله الأمين ﷺ لنزين به صدور مكتباتنا ولا لنعلق آياته زينة لجدران بيوتنا، ولا لننحت بعضًا منه على حُليّ بناتنا ونسائنا تبركًا به، فما عانى حبيبنا ﷺ ساعة نزول الوحي عليه إلا ليزيح المعاناة عن البشرية جميعها ببركة العمل بهذا القرآن العظيم، وما تحمل الأذى في سبيل إيصال رسالة القرآن إلا للعمل به والدعوة إليه إلى يوم الدين، وقد أنزله الله تعالى في ليلة عظيمة وفي شهر مبارك، ومع ذلك فإن الدنيا قد تلهي بعض الناس عن الانتفاع بهذا الكتاب العظيم فإذا بهم يصابون بداء الغفلة والهجر له، وهجره كما ذكر **ابن القيم**- رحمه الله- أنواع : هجرقراءته، وهجرسماعه والإيمان به، وهجرتدبره، وهجر العمل

(1) رواه النسائي .
(2) رواه الحاكم .

به، وهجرتحكيمه، وهجرالاستشفاء به من أمراض القلوب وأمراض الأبدان فمن لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأه ولم يفهم معناه فقد هجره، ومن قرأه وفهم معناه ولم يعمل به فقد هجره، كل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:30] . وأرشدنا إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالقرآن فقال: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه من يتكلم به منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:37] .

رغّب رسول الله ﷺ في تلاوة القرآن ومدارسته والاجتماع على ذلك فقال: **"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده "** [1] ، وعن أنس قال: كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقًا يقرأون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن ويذكرون الله تعالى. وكان المارّ بالليل ببيوت الصحابة رضوان الله عليهم يسمع لهم دويًا كدوي النحل من كثرة تلاوتهم للقرآن وبكائهم عند تدبر آياته، فقد دانوا لله وحده حين تلوا آياته وفهموا مراده، فعملوا بأوامره، وجعلوا منهجهم ودستورهم في الحياة من كتابه، فدانت لهم رقاب العباد وفتحت لهم البلاد وأعزهم الله ونصرهم.

لذا ينبغي لمن عنده مكتبة أن يكرمها و يزينها ببعض كتب التفسير المختصرة التي تعينه على فهم كلام الله عز وجل ليسهل عليه تلاوته وحفظه ومن ثَمّ العمل به والدعوة إليه.

(1) رواه مسلم .

obeikandl.com

إن تلاوة القرآن الكريم والمداومة عليها وإلزام المرء نفسه بورد يومي يحافظ عليه، فيه خير كثير وبركة في الوقت والعمر وزيادة في المثوبة والأجر، قال رسول الله ﷺ: **"من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها"** (1) .

وإن خمس آيات تحفظها وتتعلمها وتعمل بها ثم تنتقل إلى غيرها حتى تتم حفظه وفهمه والعمل به لهو دأب الصحابة وصالح المؤمنين، فعن عمر رضي الله عنه قال: **(تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا)** (2) .

ومن أراد أن يحدثه الله تعالى فليقرأ القرآن، ومن أحب أن يعرف منزلته عنده فليعرض نفسه على كلام الله، ومن ابتغى الأنيس والجليس فعليه بكتاب الله.

فهل أنت من أهل القرآن؟

وهل اشتاقت نفسك لتكون من حملة كتاب الله عز وجل؟

إن أردت ذلك فاطلبه بالإخلاص والصبر والمصابرة لينير الله به قلبك ويهذب به نفسك ويصلح لك عملك، فاحرص على أن تكون من هؤلاء لتحمل راية الإسلام إلى غيرك. قال **الفضيل بن عياض** – رحمه الله– : حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلغو مع من يلغو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلهو مع من يلهو تعظيمًا لله تعالى.

وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون وبنهاره إذا الناس مفطرون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون، ولا ينبغي أن يكون جافيًا، ولا غافلاً ولا صخابًا ولا حديدًا. فهل تريد أن تكون من هؤلاء؟ افتح مصحفك الآن ولتبدأ.

---

(1) رواه الترمذي .

(2) البيهقي .

obeikandl.com

ولتلاوة القرآن آداب يستحب التأدب بها عند تلاوته منها :إخلاص النية في قراءته، وأن تكون على وضوء وطهارة، وفي مكان نظيف طاهر، وأن تستاك قبل البدء فيها، مع استقبال القبلة والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والمحافظة على البسملة في مطلع كل سورة سوى **"براءة"**، وأن تكون القراءة بالترتيل الذي يعطي كل حرف حقه مع ملازمة الخشوع والسكينة والتدبر فيما تقرأ، وإذا مرت عليك آية رحمة فسل الله من فضله، أو آية عذاب فتعوذ من عذابه وسخطه، أو آية سجدة أو تسبيح فاسجد لله تعالى وسبح بحمده.

أخطاء تقع عند التلاوة منها :

- وضع المصحف على الأرض والأوْلى أن يكون على حامل احترامًا له.
- العبث باليد أو الجوارح لغيرحاجة، وقطع القراءة لغير ضرورة.
- التعليق من المستمعين على صوت القارئ بكلمات الثناء أو التهليل وذلك ليس الإنصات المذكور في الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204].
- الإسراع في التلاوة بطريقة تضيع معها المعاني وتسقط فيها الحروف.

بركة القرآن الكريم: هي بشائر من أقوال رسول الله ﷺ أسوقها لهؤلاء جميعًا:

لسامعه وقارئه: "من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة" (1) .

لمعلمه ومتعلمه:"خيركم من تعلم القرآن وعلمه" (2) .

للذي يقرؤه وهو عليه شاق: " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران" (3) .

---

(1) رواه أحمد .

(2) رواه البخاري .

(3) رواه مسلم .

لحافظه: "من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار"[1] .

لوالديهم: "من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجًا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا" [2] .

(1) رواه الترمذي .

(2) رواه الحاكم .

obeikandl.com

38

مكتبة (ب)

كلما قلبت ناظريك بين رفوفها رأيته جالسًا هناك بكل فخر واعتزاز، شامخًا رافعًا رأسه في كبرياء ودلال، فقد حوى من الجواهر دُرَرًا متلألئات، ومن صنوف المعرفة المختلفة امتلأت بطنه بأشهى الوجبات، فيه من البيان والحكم والبلاغة والأدب، والأشعار والطرائف مما اشتهرت به البلدان، وحوى من بحار العلوم كنوزًا ينوء بحملها الإنسان!

إنه صديقك في الصباح والمساء، والشدة والرخاء، في البيت والطريق، وقت السعة ووقت الضيق، لا يزهد فيك ما لم تزهده، ولا يبخل عليك بما تريده منه أو تطلبه، فهو خير وعاء وأوسع إناء، به زاد العقول وهو سبيل الوصول إلى العلياء، لكني كلما نظرت إليه في هذه الأيام وجدته تعلوه مسحة من حزن واكتئاب، يشكو هجر الكثير من الأحباب والصحاب، فهل رأيته؟

إنه **الكتاب**

إن مكتبتك العامرة بروائع الكتب والتي تزخر بمختلف العلوم لهي طريقك إلى العلم والنور، والعلم يبدأ عادة بالقراءة والأخذ والتلقي عن العلماء سواء كان هذا العلم من علوم الدنيا النافعة أو من علوم الدين الواجبة، وقد كانت أول آية أنزلت من فوق سبع سماوات تأمر بالقراءة. قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1] .وكلمة **"اقرأ"** فعل أمر، فنحن جميعًا مأمورون أن نقرأ، كل الأمة

المحمدية مأمورة بالقراءة، أفلا يجدر بأمة اقرأ أن تكون أقرأ الأمم وأعلمها بما ينفعها من علوم وابتكارات؟

إن أجدادنا تركوا لنا ميراثًا عظيمًا وثروة هائلة من كنوز العلم والمعرفة يحتاج لمن يزيل الغبار عنها ويقدمها للناس بصورة تلائم الوقت الذي نعيش فيه حيث تعود الناس على أخذ المعلومة بسرعة وبطريقة سهلة ميسورة، تمامًا كالوجبات السريعة فنحن في عصر السرعة كما يقولون!

وقد قام الكثير من علمائنا الأفاضل بجهد مشكور في اختصار وتبسيط لأمهات الكتب ليتيحوا لي ولك سبيل القراءة بلا معوقات أو صعوبات.

وحين ندعو إلى القراءة لا نقصد قراءة الكتب الدينية فحسب وإن كان ذلك أوجب لمعرفة الحلال والحرام وهو مطلوب مع ما نتعلمه ونتلقاه عن العلماء الأجلاء، لكننا نقصد تلك القراءة الشاملة في شتى العلوم والثقافات، وكذلك في مختلف التخصصات كلّ في مجال تخصصه، والهدف المنشود واحد وهو خدمة هذا الدين وأهله وإسعاد البشرية بما يقدم لها من خدمات. لذا كانت المكتبات هي النواة الأمّ للمعرفة منذ قديم الزمان ولا زالت لها أهميتها التي لا ينكرها أحد، وإن كانت الآن قد تطورت فأصبحت تضم فيها المكتبة الصوتية المسموعة والمكتبة المرئية وكلها تقطف من ثمرة القراءة المباركة.

بالقراءة يتعلم الإنسان ما لم يكن يعلم، ويسمو ويحلق في آفاق المعرفة، والقراءة نِعْمَ المذكر والمعين على قضاء الأوقات واستغلالها، وما من عالم من العلماء في أي فرع من فروع العلم، وما من عظيم من العظماء في أي مجال من مجالات الحياة إلا وله من القراءة نصيب قلّ ذلك أو كثر، فالنفس كالوعاء إن لم تملأه بالمعرفة النافعة امتلأ بالعبث والباطل.

وقد كانت القراءة منذ سنوات هي الطريق لملء أوقات الفراغ وأيام العطل والإجازات، وأتذكر عندما كنا صغارًا كنا نجمع مصروفنا القليل بعضه فوق

بعض لنشتري به مجلة أطفال أو قصة صغيرة لنمتع أنفسنا بقراءتها، ونجد في القراءة لذة لا نجدها في التهام قطع الحلوى وإلا لما فضلنا شراء الكتاب عليها، وأحيانًا أخرى نستعير من المكتبة المدرسية ما نشبع به نهمنا ونسد به جوعنا فتستغني عقولنا بعد فقر وتشبع أرواحنا بعد جوع. فما أجمل القراءة وما أعظم الوقت الذي تقضيه مع الكتاب. ورغم ذلك إلا أننا لا زلنا نسمع شكوى الكتاب وأنينه، فقد استغنى عنه الكثيرون بعد ظهور بدائل أخرى وإن صح التعبير فقُل هوايات ومشاغل إذ لا بديل عن الكتاب والقراءة فيه، ورغم احتلال تلك البدائل لوقت القراءة والمساحة الممنوحة له من المكان في المكتبة إلا أننا بقليل من النظام والعزم والهمة والإخلاص نستطيع أن نعقد معاهدة صلح وسلام بين هؤلاء جميعًا فنربط بين استخدام وسائل التقنية الحديثة وبين القراءة، كإدخال كتاب مفيد قرأته وأعجبت به على الإنترنت، مع تلخيص لأهدافه وما احتوى عليه من معلومات ليعم خير قراءتك الجميع.

إن الناظر بعين الحقيقة الآن يجد أن هواية القراءة في طريقها إلى الانقراض -إن لم تكن انقرضت- من نفوس الكثيرين حتى بعض المثقفين منهم الحاصلين على شهادات علمية عالية، فهناك فجوة بين الناس وبين الكتاب لن تُسَدّ إلا بتصحيح المفاهيم بالنسبة لمكانة القراءة ومنزلتها، ولذلك قلّ مستوى الثقافة العلمية والدينية، فنحن نقرأ المقرر الدراسي أو المنهج النظري للاختبار فيه لا غير حتى نحصل على شهادة النجاح أو التخرج أو التخصص ثم بعد ذلك يكون الكتاب في طريق ونحن في طريق آخر!

إنه مفهوم يحتاج إلى تصحيح أليس كذلك؟

لقد سُرقت منا أوقاتنا وأوقات شبابنا وأولادنا، إذ أصبحت القراءة أدنى وآخر الهوايات بعد سَطو التلفاز والدش والكمبيوتر والإنترنت وألعاب الفيديو على أوقاتهم، خاصة وأن الكثيرين لا يحسنون استخدامها إذ يعطونها من الوقت معظمه إن لم يكن كله!

وهذا يحتاج منا إلى وقفة جادة وصريحة لمحاسبة النفس وإعادة ترتيب الأولويات في حياتنا وصياغة جديدة للمفاهيم، وتربية النشء على احترام الوقت، وحب القراءة والعلم، والاستفادة من التطور التكنولوجي بما يخدم مصالحهم ويصلحهم في الأرض.

ينبغي لكل منا أن يجعل في بيته مكتبة صغيرة تضم بعض الكتب النافعة ويقسمها تقسيمًا مرتبًا مبسطًا فهذا قسم للكتب الدينية من فقه وتفسير وسيرة وحديث، وهذا للكتب العلمية، وذاك لكتب اللغة والأدب والشعر، وهنا كتب التاريخ والأعلام، وهذه الناحية تضم ركن الأسرة، وتلك زاوية خاصة بكتب الأطفال وقصصهم ومجلاتهم، ولا بد من مراعاة انتقاء الكتب بعناية ودقة فليس كل كتاب يقرأ وإنما علينا اختيار الطيب منها والموثوق، وإبعاد كل ما هو ضار وملوث، ويمكن أخذ رأي العلماء الأفاضل ونصائحهم في ذلك.

إننا نريد صحوة علمية في أوساط شباب هذا الجيل وفي مختلف فئاته العمرية ولن تكون تلك الصحوة إلا بالعلم، ونريد صحوة عقلية تصحو فيها العقول من غفوتها لتعرف قيمة هذا العلم ولن يتأتى ذلك بدون القراءة الواعية والفكر السديد، ومن هنا كانت أهمية البحث العلمي والذي لن يكون بغير القراءة وطلب العلم.

فإذا ما انتهيت من قراءة هذا المقال فاستعن بالله وابدأ، و"**اقرأ باسم ربك الذي خلق**" امتثالاً لأمره، حدد لنفسك كل يوم صفحة من كتاب نافع تقرؤها باسم الله، ولا تهجر الكتاب، وكن كالنحلة الذكية النشيطة التي تحسن الاختيار فلا تحط إلا على الجميل الطيب ولا تملّ ولا تكلّ وهي تتنقل على مختلف الورود والأزهار تمسك بأغصانها وتمتص رحيقها ثم تعطينا عسلاً فيه شفاء للناس.. فتنقّل بين فروع المعرفة وأغصان دوحتها مستبشرًا، مخلصًا نيتك لله مبتغيًا وجهه بعلمك هذا، تكن له من الذاكرين.

39

مكنسة

إنها لا يصمد أمامها متطفل على أرض الدار، ولا معتدٍ على أمن أهلها الصحي، وإذا ما وقعت معه في مواجهة لا يجد منها هذا المتطفل إلا الدفاع بقوة عن سلامة الموقع الذي يحضنها والمحيط الذي يلفّها، فما إن ترَ أمامها دخيلاً عابثًا حتى تزمجر وتغضب وتبتلعه في التوّ واللحظة فتريح منه الدار وأصحابها الذين أوْلوها عناية كبيرة وحرصوا بدورهم على سلامتها!

فهل عرفتها؟

إنها المكنسة بطلة حكايتنا. وإن بيتًا بلا مكنسة يملؤه التراب، ويعلوه الغبار، وبيتًا بلا مكنسة تهجره النظافة وتسكنه الأمراض. ولا عجب في ذلك فرسولنا عليه الصلاة والسلام يقول: **"إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود"**[1] . والأفنية جمع فناء، وهو بهو البيت وساحته. وتروي أمنا عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان في خدمة أهله.."**يقمّ البيت – أي يكنسه – ويعين الخادم في خدمته"**.

المكنسة رمز للنظافة وأداة من أدواتها الكثيرة، بل هي من أهمها، وكأني بها وهي تزهو على قريناتها السابقات حيث تميزت عليهن وصارت لها الصدارة في جهاز كل عروس، بعد أن تطورت وتنوعت أشكالها شأنها في ذلك شأن الكثير من أثاث البيت في زماننا هذا، وبعد أن كانت تتخذ من سعف النخيل أو من غيره

(1) رواه الترمذي .

من النباتات الأخرى صارت لها منزلة ومكانة، وضمانًا وصيانة، تأمينًا لمستقبلها! وأصبح منها الصغير والكبير، والأحمر والأخضر، والسريع والأسرع، لكن الجميع منها مشترك في مهمة واحدة، ألا وهي إزاحة الستار عن الغبار، والتميز عن الأتراب بابتلاع التراب.. كل ذلك بنشاط وجديّة، وسرعة وحيوية، ولمَ لا وقد زُوّدتْ بمحرك قوي يحركها، وبتيار كهربيّ يزوّدها.

لقد أوْلى الإسلام النظافة رعاية كبيرة وحث عليها، ولم يقصرها على نظافة الثوب والبدن أو البيت والسكن، وإنما جعلها أوسع من ذلك وأشمل بكثير.. فالمسلم مُطالَب بنظافة باطنه قبل ظاهره، وإلا لَمَا رفض الله تعالى من المنافقين إيمانهم المزعوم المتمثل في الاهتمام بالظاهر فقط مع ما انطوت عليه نفوسهم من رجس الكفر والشك والنفاق، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن المشركين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ...﴾ [التوبة:28].. وهي نجاسة معنوية، والجمهور على أن هذا التشبيه لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله. أما المسلم فإن ظاهره كباطنه وأفعاله تصدّق أقواله، فهو نظيف الثوب طاهر القلب، نظيف اللسان طيب الجنان. ونظافة باطنه تكون بتطهيره من أدران الشرك والكفر والنفاق، وتنقيته من نفايات الذنوب وأكدار المعاصي، قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدَّثر:4:5].

وقد حرص الرسول ﷺ أن يكون أتباعه من المسلمين شامة بين الأمم، فحث على النظافة في كل شيء، وحين يرى رجلاً عليه ثياب وسخة يقول: **"أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه"**[1] . ويقول معلّمًا لنا جميعًا: **"عشرة من الفطرة : قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم (عقد الأصابع)، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء،(يعني**

(1) رواه أحمد .

الاستنجاء)، والمضمضة" [1] . وها هي آيات القرآن تتنزل من فوق سبع سماوات يأمرنا الله تعالى فيها بالوضوء فيقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ﴾ [المائدة:6] ، وبالغسل من الجنابة: **"وإن كنتم جنبًا فاطهروا"**، وجعل الطهارة شرطًا من شروط صحة الصلاة، طهارة الثوب والبدن والمكان.

كما أن الرسول ﷺ حثنا على أغسال مستحبة كغسل الجمعة وغسل العيدين وغسل دخول مكة والمدينة وغسل الإحرام وغير ذلك من الأغسال المستحبة التي ترتقي بنا إلى درجة عالية وكبيرة من النظافة، وهذه النظافة من الإيمان لأنها امتثال لأمر الله عز وجل، وإن من يغسل وجهه ويديه ورجليه كل يوم خمس عشرة مرة في وضوئه، هو إنسان بلا شك نظيف غاية النظافة وطاهر البدن كذلك.

وكما حضّ الإسلام على طهارة المسلم ونظافة بيته حثّ على نظافة الشارع الذي يقطنه والبلد الذي يضمه فجعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة بل شعبة من شعب الإيمان، فقال النبي ﷺ: **"الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"** [2] .

إن خلق النظافة خلق عظيم وسمة من سمات المسلم الصادق، ولا بد أن نتخلق به ونربي أولادنا عليه ونعلمهم منذ نعومة أظفارهم أن ديننا دين النظافة وأن تقصير بعضنا في الالتزام الصحيح بهذا الخلق الطيب ليس حجة على الإسلام، وإنما الإسلام هو الحجة على الجميع، وهو لا يأمر إلا بكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر، وقد كان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: **"إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"** [3] .

---

(1) رواه مسلم .

(2) متفق عليه .

(3) رواه أبو داود .

40

ملابس الإحرام

حين ينظر إليها المرء تطير نفسه، وتحلق روحه في آفاق السماء، تتقلب في ملكوت الله، وتدعوه رغبًا ورهبًا علّها تحظى بالقرب وتفوز باللقاء.. وما أن يلبسها المحرم حتى يحنّ قلبه حبًّا، ويتحرّق شوقًا، ويسمو به في رحلة علوية، يشقّ معه الطريق إلى رحاب الله.. فتحيا الروح وتطهر، وتشرق النفس وتلين، وتتهلل فرحًا باللقاء الكبير، ذلك اللقاء العظيم في موسم الحج الذي حبا الله به أمة الإسلام.

فُضّلت ملابس الإحرام بأحب الألوان إلى الله.. اللون الأبيض.. فهي بيضاء نقية.. طاهرة طهارة ظاهرة وجليّة.. وما أجمل بياضها وطهارتها حين تمتزج بنقاء القلوب وطهارة السرائر، فحين يتجرد الحاج من ثيابه المعتادة فإنه يجرّد نفسه من هواها ورقّها، وعُجبها وذنوبها، فإذا هي الأخرى بيضاء نقيّة.. وحينها تحلو المناجاة وتتصل الأرض بالسماء عبر تلبية الحجيج ودعاء المشتاقين من ضيوف الرحمن، وتتصدع الأرض فرقًا وطربًا، وتهتز أركانها من كثرة الملبين عبر أثيرها وفي أنحائها وأرجائها المختلفة، والكون كله يشارك وتختلط الأصوات ويناجي الجميع ربهم مناجاة العبيد الخائفين.. لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.. فتنخلع القلوب.. ليس خوفًا من ربها فحسب بل شوقًا للُقياه وطمعًا في قربه ورضاه.. فقد ذكّرها ذلك الموقف باليوم العظيم.. يوم الحشر ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطفِّفين:6].. فلبّيك اللهم لبّيك. قد سوّيتَ في هذا الحشد العظيم بين المأمور والأمير، والصغير والكبير، والغني والفقير.. بين الأبيض والأسود، وبين الأعجمي والعربي،

فالكلّ عندك سواسية، والكلّ عبيدك، والبيت بيتك، والحرم حرمك، والملك ملكك، ولا فضل لأحد على أحد، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى بعد أن جعل الإسلام الناس سواسية كأسنان المشط.

قبل أن يلبس المحرم ملابس الإحرام، عليه أن ينظف بدنه ويزيل شعثه ويغتسل.. وملابس الإحرام بالنسبة للرجل إزار يلفه على وسطه، ورداء يضعه على كتفيه، ونعل لا يغطي الكعبين، ولا يغطي المحرم رأسه ولا وجهه،ويستحب أن يكون الإزار والرداء أبيضين لقول رسول الله ﷺ: **"البسوا ثياب البياض فإنها أطيب وأطهر وكفنوا فيها موتاكم"** [1] .. أما المرأة فتلبس ثيابها المعتادة وتغطي رأسها، ولا تغطي وجهها ولا كفّيها، وملابس إحرام المرأة بتلك الصفة أستَر لها وأيسر.

إن هذه الملابس البيضاء رمز للطهر والنقاء، كما أنها علامة على التسليم لله الملك القوي المنتصر، وهي تنطق بالصلح والوفاء بالعهد مع الواحد الجبار، والسلام والأمن وحفظ الذمم مع عباده، وقبل أن يضعها المحرِم على جسده فإنه ينزع من قلبه ما التصق به من غبار الطريق الطويل في حياته، ويخلع منه حب الدنيا، ويتجرد من متاعها ولو إلى حين.. لذا فإنه ينبغي أن تكون هذه الثياب من كسب حلال طيب يكون من عمل يديه لا مغصوبة من أحد، لأن الحاجّ يفد على الله مالكه، ولا ينبغي للعبد أن يدخل على سيده ومولاه وهو مخالف آداب الدخول عليه، حتى إذا ما مدّ إليه اليدين أعطاه ما يريد بل وزاده وأكرمه.

لقد لبس رسول الله ﷺ ملابس الإحرام تلك والتي تتيه فخرًا أن لامسَتْ جسده الشريف الطاهر، لبسها النبي ﷺ وحجّ حجته المعروفة بحجة الوداع، وما أن دخل مكة ورأى البيت حتى دعا ربه تعالى لكل من يحجّ ويعتمر إلى يوم الدين فقال: **"اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وزد من عظّمه ممن حجّه واعتمره تشريفًا وتكريمًا ومهابةً وتعظيمًا وبرًا"** [2] ..

(1) رواه أحمد .

(2) رواه الطبراني .

كما علّم الناس مناسكهم وبيّن لهم سنَن حجّهم، وهو يقف بينهم بعد أن أدّى الأمانة ونصح الأمة وربّى جيلاً من المسلمين، وها هو يرى نتيجة جهده وحصيلة تعبه وكفاحه سنين عددا في الدعوة إلى الله، والآن وقد دخل الناس في دين الله أفواجا، ها هو حبيبنا ﷺ يقف فيهم خطيبًا يوم عرفة وقد أقرّ الله عينيه بالفتح والنصر المبين، ودحر الشيطان الرجيم وأتباعه من أهل الكفر والمشركين، يقف الحبيب ﷺ ويقول لجموع الحجيج ولكل المسلمين إلى يوم الدين: **"إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"**[1] ... ويحذرنا ويدعونا إلى اليقظة المستمرة ومحاسبة النفس حفاظًا على الدين فيقول: **"أيها الناس: إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم"**.. ويوصي بالمرأة التي طالما ظُلمت قبل الإسلام ويقرّ لها حقوقها في العيش كإنسان مكرّم فيقول: **"اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله"**[2] .. كما يدعو إلى التمسك بكتاب الله قائلاً : **"وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وسنة رسوله"**، ثم يختم خطبته العصماء ببيان حقوق الأخوة ويرسي قواعدها الصلبة المتينة فيقول: **"اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمُنّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمنّ أنفسكم، اللهم هل بلغت "** ؟..... اللهم اشهد.

نعم.. لقد بلّغ والله فصدَق في بلاغه، ونشهد أنه أدى الأمانة ووفّى.. فصلّ اللهم عليه وعلى آله وصحبه، واجزه عنا جميعًا خير ما جزيت به نبيًا عن أمته، واجمعنا معه في الفردوس الأعلى، ولا تحرمنا صحبته.

---

(1) رواه أبو داود وابن ماجه .

(2) رواه أبو داود .